

فضيلة الدكتور فريد الأنصاري (رحمه الله تعالى) : أديبا وناقدا



د. عبد الحفيظ الهاشمي

بسم الله الرحمن الرحيم وأصلي وأسلم على الحبيب المصطفى الأمين وعلى آله أجمعين
هل يملك القلم أن يدون عبارات الأسي والحرز الذي يعتصر النفس جراء هذه المصيبة التي ألمت بالأمة الإسلامية جمعا بفقد أحد أعلامها المتميزين ورجالها الصادقين؟ أم هل يملك اللسان أن يفصح عن مشاعر قلب مكلوم، وأحاسيس فؤاد مصدوم لرحيل رجل أمة تجمع فيه ما تفرق في غيره؟

إن أخي وحبيبي وأستاذي فريد الأنصاري رحمه الله تعالى وتقبله عنده في الصالحين، كان عصيا على التصنيف فلم يكن الأصولي والفقهي والمفسر فقط، وإنما كان أيضا المصطلحي المحقق والناقد المدقق والروائي البليغ والشاعر الخنديد، كان الداعية المجاهد والمربي الناجح، والأستاذ الباحث النحرير والخطيب المفوه والواعظ الحكيم.. وفوق هذا وذاك كان الورع التقى النقي.. كان كل ذلك بتواضع منقطع النظير وخلق جم رفيع.. إن فقدانه اليوم والأمة تجتاز مرحلة عسيرة في تاريخها ليعد خرما كبيرا وخسارة جسيمة..

ولو أردت أن أعد عطاءاته العلمية ومناقبه الخلقية ما استطعت إلى ذلك سبيلا. وإنما سأقصر حديثي على مجال قلما تحدث فيه عن الرجل، ولا يقل فيه شأننا عن بقية المجالات، إنه مجال الأدب والنقد :

1- في مجال الشعر :

استطاع رحمه الله تعالى أن يسجل حضوره، وينقش اسمه في سجل الشعراء المتميزين، والمبدعين المهتمين، حيث ألهم ملكة خصبة تجود بلألى القول ودرر التعبير : تهر العقول وتملك العقول. فترك لنا خمسة أعمال شعرية موزعة بين شعر عمودي شمله ديوانه الأول الموسوم بـ"ديوان القصائد" الجزء الأول الصادر عام 1992م ويتضمن مجموعة من القصائد تجمع بين شجون الذات ونقد الواقع ونصرة القضايا الإسلامية، بأسلوب جزل قوي يزاوج أحيانا بين الجد والسخرية، كما في القصيدة الأولى "بطاقة ناخب"، ويعمد أيضا في بعض القصائد إلى تنوع القافية كما في قصيدة "رحلة الحراب" وتمتج تصويراته من الطبيعة في صفائها وانسيابها ومن النفس في إقبالها وإدبارها، كل ذلك في قالب لغوي رشيق بديع يتغذى من معجم غني يدل على سعة في الاطلاع وتنوع في الثقافة..

وتنضم إلى هذا الديوان قصيدته البكائية المطولة "الوعد" في رثاء الأستاذ عبد الرزاق المروزي رحمه الله تعالى التي نظمها في أربعة ومائة بيت أواخر سنة 1996م بنفس واحد ومشاعر متدفقة، حيث قال عنها طيب الله تراه : "فقد ارتفعت أمامي صورة عامة لهذه القصيدة بطولها،

فكأنني أشاهدها موجة موجة، رغم أنني لست صاحب مطولات، وإني إذ أتوضأ أدفعها مرجئا وتدافعني ملحمة، وفي الطريق إلى المسجد تفجرت الأبيات الأولى.. (الوعد ص:6)

وشعر قصيدة التفعيلة وقصيدة النثر الذي يضمه ديوان مشترك بينه وبين الأستاذ الشاعر عبد الناصر لقاح، والموسوم بـ"جداول الروح" الصادر عام 1997م حيث سمح لشاعريته أن تخلق في سماء هذه الإيقاعات الحديثة، وأثبت قدرته على مسابرة ذلك، والتفوق فيه بسجية مطبوعة..

وشعر "الهايكو" المشهور بالمجتمع الياباني، والمعروف بقصر مقاطعه، حيث ضمنه "ديوان الإشارات" الصادر عام 1999م، وفيه يجرب هذا النوع من الشعر الذي يقوم على توظيف عناصر الطبيعة على غرار الشعر الرومنسي لكن في صورة جمالية أقرب إلى الرسم الانطباعي الذي ينبض بالحياة المتدفقة، وأما مضمونه فهو غالباً ما يميل إلى رسم فكرة دينية.. والأستاذ فريد رحمه الله تعالى جرب هذا النوع الشعري أيضا دون غيره

ثم يكن الأصولي والفقهي والمفسر فقط، وإنما كان أيضا المصطلحي المحقق

والناقد المدقق والروائي البليغ والشاعر الخنديد، كان الداعية الإجهاد والمربي الناجح.

والأستاذ الباحث النحري والخطيب المفوه والواعظ الحكيم.. وفوق هذا وذاك كان الورع النقي

النقي.. كان كل ذلك بتواضع منقطع النظير وخلق جم رفيع.. إن فقدانه اليوم والأمة تجتاز

مرحلة عسيرة في تاريخها ليعد خرما كبيرا وخسارة جسيمة..

الأديب من أدوات القص والتعبير عن رؤيته وأحاسيسه تجاه مجتمعه وما يموج فيه من صراعات فكرية واجتماعية وسياسية فهي رواية "تكشف حقيقة الصراع بين الحداثة، الزاحفة من الغرب نحو البلاد الإسلامية باسم التقدم والتطور والتجديد والعلم والتقنية، وبين القيم الراسخة والفطرة السليمة التي تتطلع إلى الحياة السعيدة، والتطور الصحيح مع المحافظة على هذه القيم" (المشكاة العددان 37/36 ص:64)

وإليك نموذج من هذا السرد البليغ والتعبير الرشيق الذي يأسر بانسيابيته ويسحر بجماله يقول رحمه الله تعالى: "وأبحث لعيني أن تتلمى حياء الماء.. كان الأصيل يعزف للأطيار الغربية أحياناً السكون، ولا شيء غير السكون.. فمن ذا قدير على الكلام الساعة، في هذه البحيرة العذراء؟ وحدها دجاجة الماء الأبدية كانت ترحل على طول النهر رفقة صغارها.. فخطر لي أن أسألها عنها فمن يدري؟ ربما تكون سارية بين أدغال الشط الغربي تعزف وحيدة على ناي من قصب الماء ثم تصغي لصداء، ربما كانت تبث النسيم السافر سر احتجاجها" (كشف المحبوب ص:9)

ودونك شهادة أحد كبار النقاد الإسلاميين محمد حسن بريغش رحمة الله عليه الذي يثني على الرواية وعلى الأديب بقوله : "الرواية هذه تجربة ثرية حقاً، حشد فيها المؤلف كل ما لديه من إحساس مبدع

وشعور متيقظ وكل ما عنده من ثقافة واسعة استخدمها كلها على لسان بطله ليكشف الحجاب، ويصل إلى الحقيقة، استخدم ثقافته التاريخية والدينية والفلسفية ومعرفته بأحواله الصوفية ومصطلحاتها، وثقافته عن البيئة ومسميات الأشياء والعادات فيها، وكانت كثير من فقراته صوراً جميلة وأخاذة لجلاء موقف ما أو مشهد ما أو فكرة ما... والكاتب يجيد استخدام المعارف والأسماء التاريخية وغيرها وأسماء الأبطال والمشهورين، واستخدام أسماء الحوادث المهمة كرموز موحية ترسم مشهداً كاملاً وتختصر في كلمة أو مصطلح أو فكرة صورة بعيدة الدلالات والأثر وبدون أن تستعصي على القارئ، وتعبيره دقيقة وموحية، الرمز مليء عنده بالعطاء لا يصعب على القارئ فهم دلالاته بل يزيده وضوحاً وشوقاً لمعرفة المزيد... والكاتب بعد هذا يخرج عن إطار الرقابة، ويستخدم أساليب متعددة في تناول الرواية بين التصوير الواقعي والحكاية المسروبة وبين التصوير الإيحائي والرجوع إلى الأحلام، والغوص في اللاشعور والعودة في النقيض والتمازج بين الأشياء واستخدام الرمز". (المشكاة العددان 37/36 ص:66-67)

أما روايته الثانية "آخر الفرسان" فهي متن سردي متميز، ينتمي لجنس السيرة، وخصوصاً حكاية سيرة، وفيها تناول حياة رجل النور الأستاذ بديع الزمان سعيد النورسي، ببناء أدبي يجمع بين التصميم الواقعي في ترتيب الأحداث، والمعمار السريالي المجنج بالخيال. وقد رأى رحمه الله ذلك في نظره هو الأنسب لتقديم صورة عن حياة رجل كالنورسي الذي عاش حياة درامية أشبه ما تكون بالخيال. وقد استخلص الكاتب معلومات هذه الرواية من الخلاصة البديعة التي ألفها مترجم رسائل النور الأستاذ إحسان قاسم الصالحي عن حياة بديع الزمان بعنوان "الرجل والإعصار"، كما أنه استوحى بعض التفاصيل من الكتاب الأصل "كليات رسائل النور" خاصة المجلد التاسع الذي يتضمن السيرة الذاتية للنورسي وحقق بعض التواريخ المتعلقة بالدولة العثمانية في مرحلة السقوط من كتاب "رجل القدر" للأستاذ أورخان محمد علي.

وقد كتبت هذه الرواية بأسلوب نوراني مشرق يجمع بين الخيال والتوثيق الدقيق، وتزاوج بين تعبير المتكلم /الكاتب وحوار البطل /الفارس، وهي مقسمة إلى سبعة فصول كل فصل يتضمن حكاية أو حكايات ومقامات، كل ذلك ببيان رائع أخذ ونفس مسترسل وشعور متدفق..

3- وأما في مجال النقد الأدبي :

فالرجل رحمه الله لم يكن أقل موهبة عنه في الإبداع.. فهو حين تناول ديوان "الأحجار الفوارة" للشاعر المتميز الأستاذ الدكتور محمد علي الرباوي، جعل قصائده عبارة عن جذبات صوفية، تحمل تجربة خاصة، وشبه فيها الشاعر بالمتصوف حينما يشرع في أوراده حيث لا يدري أبداً متى يفتح أمامه باب المقام الجديد وإنما هو في رياضة ذاكرة أو ساجداً. وقد جعل